العنوان:	متسلمية نابلس فى العهد المصرى 1247 - 1256 هـ = 1831 - 1840 م.
المؤلف الرئيسي:	سعادة، علاء كامل عبدالجابر
مؤلفين آخرين:	الطراونة، محمد سالم غثيان(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2007
موقع:	الكرك
الصفحات:	1 - 364
رقم MD:	786599
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة مؤتة
الكلية:	عمادة الدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	التاريخ المصرى، مدينة نابلس، الاثار التاريخية، السلطات الحاكمة
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/786599

الفصل الأول
نبذة تاريخية عن مدينة نابلس

1.1 المقدمة:

إن الولوج إلى أعماق تاريخ الأمم والشعوب، والنظر بتمعن إلى ما أفرزته من حضارة ابتدعتها أو اكتسبتها أو أضافت إليها لهو نوعٌ من استخراج جواهر الموروث من كنوز أدبيةٍ وعلميةٍ وتاريخيةٍ وفنية، فما حياة الأمم والشعوب في الدول إلا سيرٌ في طريق بدأه الأجداد الأوائل، وسار عليه الأبناء والأحفاد. ويجد الإنسان نفسه في خضم الأحداث التاريخية التي تتوالى مؤثراً ومتأثراً في هذا الحدث أو ذاك؛ إذ أن عمر الشعوب لا يحسب بعدد السنوات، وإنما بالأحداث المؤثرة داخل هذه السنة أو تلك، فكم من سنوات مرّت على وجه المعمورة دون أن يشعر بها الإنسان!، وكم من سنة أو يوم أثَّر على مسيرة طبيعة الحياة سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وفتح القسطنطينية خيرُ مثال على ذلك، وسقوط غرناطة، والحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين شكلتا معالم التاريخ الحديث، وما آل إليه من تطورات.

ولا ريب أن بلاد الشام هي موئل المجد، ومصب الأحداث والمجريات على مر التاريخ لما احتوته من موروث ديني وتاريخي وسياسي حضاري يدل على ذلك فهي تحوي كثير من المقدسات الإسلامية والمسيحية، وهي مهد الأنبياء وملجؤهم. بالإضافة إلى أنها منبع كثير من الحضارات فقد قامت في بلاد الشام حضارة الفنيقيين والكنعانيين والأنباط وغيرهم، وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي المميز والهام في خارطة العالم، وتحكمها بطرق التجارة العالمية، ولموقعها المناخي الذي كان له دور في استقطاب العنصر البشري إذ إن مناخ بلاد الشام هو مناخ البحر الأبيض المتوسط الذي يسوده الاعتدال في أغلب فصوله.

عندما صبت الدارسة نظرها نحو متسلمية نابلس في العهد المصري والتي هي إحدى مدن الشام، وجد الباحث أن الحكم المصري كان له الأثر البالغ في تطويع ما اكتسبته متسلمية نابلس أثناء مسيرتها داخل دولاب الحكم العثماني، إلا أنها وجدت نوعا جديداً من الإدارة والأنظمة السياسية في الحكومة المصرية التي أدخلها

محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا، ولعل مرد ذلك إلى تأثر محمد علي باشا بالأنظمة الأوروبية وبخاصة فرنسا، إلا أن الحكم المصري قد استفاد كثيرا من الترتيبات الإدارية العثمانية.

لقد كانت نابلس ذات تأثير واضح في تدخلها الإداري في بلاد الشام، حيث إن كثيراً من شيوخ المدينة وأمرائها لم يكونوا متقوقعين في نابلس فحسب، وإنما تركوا بصماتهم في سواها من المدن الشامية الأخرى ففي العهد المصري نجد الشيخ قاسم الأحمد ونجله الشيخ محمد قاسم وغيرهما قد شغلا منصب متسلم القدس، التي كانت مركزاً أساساً للحكم المصري في فلسطين، والشيخ حسين عبد الهادي ولاه المصريون أمر صيدا وهناك غيرهم من النابلسيين الذين تولوا الوظائف الإدارية في يافا وغزة وغيرها من المدن الشامية.

إن وقوع نابلس على الطريق التجاري الشامي أعطى للمدينة دوراً تاريخياً وتجارياً واجتماعياً مميزاً؛ فإن وقوعها على طريق الحج الشامي قد أوجب على أهلها المساهمة بتزويد بعض نفقاته لأمير الحج في كل عام. فقد كان هناك باشا الدورة الذي كان يدور على المدن لجمع الأموال للإنفاق على قافلة الحج الشامي من نابلس والقدس.

إذن فقد شغلت متسلمية نابلس في العهد المصري مكانة مميزة استمرت قرابة عقد من الزمن، حيث وجد الكثير من أهالي مدن الشام مع دخول الحكم المصري نوعاً من الخلاص من فترة الشدة والضغط المالي والإداري الذي مارسه الحكم العثماني، وبداية لعهد جديد تمثل بدخول إبراهيم باشا إلى الشام، ولكن سرعان ما تغير هذا الرضا والاطمئنان إلى ثورات عمت مدن الشام فجَّرتها إجراءات محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا اللذين فرضا كثيراً من الضرائب، واستحدثا الكثير منها، وتعسفا بطرق جبايتها. بالإضافة إلى فرضهما التجنيد الإجباري، وكان للطريقة التي نزع بها السلاح دور في هذه الثورات، لأن نزع السلاح أمر لم يعتد عليه سكان نابلس وغيرهم من العرب الشاميين في بلاد الشام، فأدى ذلك كله إلى نشوب نار الثورات التي عصفت بالحكم المصري في بلاد الشام.

ولابد من الإشارة إلى أن متسلمية نابلس، وبالرغم من الثورة التي قامت في وجه إبراهيم باشا، والتي كانت نهايتها مصرع قادتها، وفشل القائمين عليها، إلا أن المدينة قد عاشت فترة مشرقة من الزمن في ظل الحكم المصري الجديد بإدارة منظمة كفلت الأمن والاستقرار النسبي في طرق مواصلاتها، وحدودها، وظهر أثر ذلك على التجارة والصناعة والزراعة.

تناول العديد من المؤرخين والباحثين تاريخ مدينة نابلس بالدراسة التاريخية من معظم جوانبها وفتراتها، وظهرت كثير من الدراسات والأبحاث التي حاولت التقرب من متسلمية نابلس في العهد المصري، ومن هذه الدراسات اطروحة أكرم الراميني الموسومة بعنوان "نابلس في القرن التاسع عشر"، وقد تناول فيها مدينة نابلس في فترة قرن من الزمان، وقد تطرق فيها لمختلف نواحي الحياة في نابلس، ودراسة إحسان النمر في كتابه" تاريخ جبل نابلس والبلقاء"، والواقعة في أربعة أجزاء، هي دراسة تركز على حيثيات مدينة نابلس التاريخية من كافة وجوهها الاجتماعية والاقتصادية في فترة الحكم العثماني والانتداب البريطاني، إلا أنهما وعلى الرغم من زخم المعلومات وغناها، لم تتناولا متسلمية نابلس في فترة الحكم المصري بنوع من التخصيص والتوضيح الشامل لهذه الفترة الهامة، على الرغم من أهمية هذه الفترة التاريخية في رسم مستقبل نابلس، وما جرى فيها من أحداث تستحق البحث والتقصي.

ويوجد عدد من الدراسات التي تناولت مدينة نابلس على مر عصورها التاريخية، ومنها: "نابلس في العصر المملوكي648- 923هـ- 1250- 1517م"، لرئيسة طلب العزة، و"تاريخ مدينة نابلس 2500ق.م- 1918م، لعبد الله كلبونة، و"قصة مدينة نابلس" لمسلم الحلو، وهي دراسات على الرغم من أهميتها، وعظم الجهود التي بذلت في إعدادها لم تتطرق الى دراسة متسلمية نابلس في عهد محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا بشكل تفصيلي أيضا. لذلك رأى الباحث إفراد هذه الأطروحة لتسليط الضوء على متسلمية نابلس في العهد المصري بنوع من التخصيص لما اشتملت عليه هذه الفترة من تطورات على كافة الصُعد السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تتناول هذه الدراسة الجانب الثقافي التعليمي

الذي شهدته المدينة في ظل الحكم المصري، وذلك لاتساع مجال العلم والثقافة في عهد محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا الذي انشأ المعاهد العلمية وابتعث الطلبة لاكتساب العلوم الحديثة من الدول الأوروبية. لكن ذلك يبقى تطلعاً من قِبل الباحث لتناول هذا الجانب بالتوضيح والشمول في المستقبل "إن شاء الله تعالى".

لقد افتتحت الدراسة باكورة كل فصل من فصولها والجزئية التي يحتويها بمقدمة استهلالية تمهيدية توضيحية لماهية الفصل. صاغها الباحث ليقدم محتوى الدراسة، وتبيان ما يشتمل عليه الفصل من معلومات؛ لإيصال الذخيرة العلمية التي يحملها في طياته.

وقعت الدراسة في ستة فصول ابتدأ الباحث أولها بتمهيد عن الحضارات والأمم والشعوب التي وطئت أقدامها أرض مدينة نابلس من رومان وعرب ومسلمين ويهود ومسيحيين، فقد وقفت الدراسة على مخلفاتهم الصامتة التي تستنطق سر وجودها، وتناول الفصل ذاته تحليلاً لأهم المصادر والمراجع من سجلات المحكمة الشرعية في نابلس، وموسوعات، وكتب رحالة وجغرافيين، وغيرهم من المصادر والمراجع التي تم عرضها في نهاية الدراسة.

ولا بد من التأكيد على أن ما استقته الدراسة من سجلات المحكمة الشرعية التي تم توظيفها كمصدر تاريخي رئيس، انه قد تم التعامل مع هذه السجلات كنص ولم يتدخل الباحث في متن السجل بتعديل أو تبديل لأي مفردة أو مصطلح، وذلك لخلق نوع من الأصالة، ولكي يطلع القارئ على طبيعة هذه الحجج فيتعرف الى الأسلوب الذي صيغت به هذه الحجج ويطلع على المفردات والمصطلحات والمفاهيم التي كانت سائدة في تلك الفترة، ويتعرف الى الديباجة التي كان يتم فيها مخاطبة المسؤولين والموظفين الإداريين والدينيين؛ مع التأكيد على أن الدراسة لم تكتفِ بإيراد الحجة كما هي، وإنما قامت بتحليل واستنباط العديد من الأفكار والمعلومات من هذه السجلات، سواء أسماء المحلات(النواحي أو الأحياء) والخطوط(الطرق)، أو أسماء العائلات. بالإضافة إلى أن السجلات أعطت صورة واضحة عن أعمال الموظفين من متسلم ومفتي وقاضي وغيرهم. وصورت السجلات أشكال المعاملات اليومية والتجارية المعمول بها داخل أسواق المدينة، وحفظت كمَّاً من أسماء

الجوامع، وإشارات عن طبيعة الوظائف الدينية داخلها، وغيرها من المعلومات القيمة.

واختص الفصل الثاني في الحديث عن الأسماء التي تعاقبت على مدينة نابلس طوال تاريخها، ثم سلط الضوء على جغرافية المدينة، وذلك بالتطرق لتضاريسها، إذ تقع نابلس بين جبلي عيبال وجرزيم المرتفعين، بالإضافة إلى السهول والأودية والينابيع، وتناول هذا الفصل موقع مدينة نابلس وحدودها بالنسبة لبلاد الشام وتم تحديد الموقع الفلكي أيضا، وعرَّج الفصل على المناخ الذي ساد نابلس وهو مناخ البحر الأبيض المتوسط المعتدل، وتوضيح انعكاسه على طبيعة الحياة في المدينة، ووقف الفصل الثاني أيضا على أعداد السكان في المدينة، وعرض مجموعة من الإحصائيات السكانية التي شملت المدينة.

وفي الفصل الثالث عرَّجت الدراسة على الحياة الإدارية داخل متسلمية نابلس، وما طبق في بلاد الشام من تقسيمات إدارية قبيل الحكم المصري، وتوضيح الإصلاحات الإدارية التي ادخلها إبراهيم باشا بمساعدة والده محمد علي باشا على بلاد الشام، وتم توضيح ما اشتمل عليه السلك الإداري في المتسلمية من موظفين إداريين، ووضحت الدراسة أن المتسلم كان على رأس الهرم الإداري في المتسلمية، فقد أوكلت إليه كافة مهام الإدارة داخل حدود متسلميته، وتناولت الدراسة النواحي والقرى داخل المتسلمية بالإضافة إلى تناول السلك القضائي في المتسلمية، والأمن الذي ساد الطرق في الترحال والتنقل بين مدن الشام.

وقد وضَّح الفصل الرابع الحياة الاقتصادية التي عاشتها نابلس في ظل الحكم المصري لبلاد الشام وطبيعة الأراضي وحجم الزراعة التي عملت حكومة محمد علي باشا وإدارة إبراهيم باشا على تطويرها من خلال تقديم الأموال والقروض للفلاحين، ثم تبدل الأمر في نابلس عندما تضاعفت الضرائب وتكاثرت، والتي استحدث بعضها من الحكم العثماني ودخلت باب الحكم المصري كضريبة الفردة والميرى وغيرها من الضرائب التي استمر العمل بها في الحكم المصري والزيادة عليها، وهناك ضرائب استحدثتها الحكومة المصرية لسد النقص والعجز المالي في الخزينة الخديوية، وتطرق الفصل إلى الحرف والصناعات والتجارة التي

سادت نابلس في ظل الحكم المصري، وتناول الفصل أيضا النظام المـالي النقـدي وأنواع المسكوكات التي راجت في ظل الحكم المصري، وكذلك الأوزان والمكاييـل والمقاييس.

تناولت الدراسة في فصلها الخامس الناحية الاجتماعية والدينية التي وجدت في المدينة إلى نهاية الحكم المصري من البنية الاجتماعية للمدينـة، وعـرّج هـذا الفصل على الثورة التي قادها شيوخ وأهالي نابلس ضد الحكم المصري معبرين عن استيائهم ورفضهم للإدارة المصرية التي لم تحقق أمانيهم في الرخـاء الاقتـصادي، وإنما أثقلت كاهل المواطن، وضيقت عليه في مصادر رزقـه، وتناولـت الدراسـة الأسباب المباشرة وغير المباشرة للثورة، وتحدثت عن المجريات وما أسفرت عنـه من فشل وملاحقة لقادتها في مدن الشام وتصفيتهم، ثم تناول الفصل التجانس الطائفي الذي وجد في المدينة فقد احتضنت نابلس إلى جانب المـسلمين الـسامرة واليهـود والنصارى، وتم التطرق لكل طائفة من هذه الطوائف على حدة، وأوضحت الدراسة العلاقة التي كانت تربط هذه الطوائف بعضها بعضاً، واحتوى الفصل أيـضا علـى وصفٍ لمجموعة من أهم الجوامع والمقامات والكنائس التي حضنتها نابلس ضـمن المنشآت الدينية، وتم تناول المنشآت العامة من منازل وحمامات عامة وغيرها مـن الآثار بجبلي المدينة وقراها.

وفي فصل الدراسة السادس كان التطرق إلى الكيفية التي تمـت بموجبهـا نهاية الحكم المصري في بلاد الشام، وما جرى من تحالفات أوروبيـة مـع الدولـة العثمانية في السعي لإنهاء الوجود المصري من بلاد الشام، وأسفرت عـن خـروج المصريين بعد عقد من الزمان عاشته بلاد الشام تحت سيطرة محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا، فقد خرجت القافلة المصرية بسياستها وعساكرها من بلاد الشام، لكـن البصمة الحضارية التي خلفتها إدارة محمد علي باشا وإبراهيم باشا في بلاد الشام ما زالت باقية الى الآن.

وفي نهاية هذه الأطروحة قدم الباحث خاتمة شملت ما توصلت إليه فصول الأطروحة من نتائج، ثم عرض جميع المصادر والمراجع التي أفـادت منهـا هـذه الدراسة إذ حاول الباحث تقديم تحليلات للوقائع والأحداث التي مرت على متـسلمية

نابلس في العهد المصري، وهذا جهده يضعه بين أيديكم لعله يسد به فترة تاريخية حافلة بالتطورات لم تعطَ حقها بالشكل الكافي الصحيح، وما أدعي الكمال فالكمال لصاحبه عز وجل، ولكن شرف الاجتهاد هو مطمع كل باحث.

1. 2 تحليل بعض المصادر والمراجع.

سجلات المحكمة الشرعية في نابلس:

وهي عبارة عن تسجيلات على أشرطة ميكروفيلم محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، واستفادت الدراسة من السجلين9 و10 اللذين يقعان ضمن فترة الرسالة، حيث يقع السجل 9 في الفترة من 1240-1254هـ/ 1824- 1829م، والذي كان استلهاماً تقديمياً لبداية العهد المصري في مدينة نابلس. لكن السجل10 والذي يبدأ في سنة 1255- 1262هـ/ 1830-1845م، يعتبر ذا أهمية بالغة لتربعه على طول فترة الدراسة 1247- 1256هـ/ 1831- 1840م بل ويستمر الى ما بعد نهاية الحكم المصري لبلاد الشام.

تنبع أهمية السجلات من كونها ترصد الوقائع والأحداث اليومية التي تجري على الساحة النابلسية بعامة، والحديث فيها غير مقصور على فئة دون أخرة؛ إذ يجد المتصفح لهذه السجلات أنها تحوي موضوعات تتضمن مختلف شؤون طبقات المجتمع النابلسي، فقد اشتملت السجلات على حجج وإعلامات، وتَرِكَات، وإرث، وأوقاف، وإيرادات، ومراسلات صادرة، وواردة وبلاغات ووكالات ووصايا ودعاوى، وفرمانات، وأوامر سلطانية، وعقود زواج، وطلاق وخُلع، وعقارات بيع وشراء وصفت العقار بدقة من ناحية عدد طبقاته، ومكونات كل طبقة. ويجد القارئ للسجلات ذِكراً لأسماء أشخاص لم تطأ أقدامهم أرض المحكمة فقد يأتي في سياق الوصف لأي موقع مثل الدار الكائنة بجانب دكان فلان ودكان فلان والمقابلة لدار فلان بن فلان...

تعتبر سجلات المحاكم الشرعية ذات أهمية كبيرة في تقديم معلومات يومية عن الأحداث التي تطرق باب المحكمة الشرعية؛ فالسجلات خُطت ودُوِّنت لحفظ حقوق المواطنين والرعايا، إضافة لما يوجد بين ثنايا الحجج من أسماء للمحلات،

والخطط، وأسماء الموظفين والعائلات التي تسكن بداخل تلك المناطق إضافة إلى أسماء الجوامع والأسواق التجارية وأرباب الحرف المختلفة.

ومما يبهجُ الدارسَ والقارئ أنَّ جميع هذه المعلومات الواردة في السجلات الشرعية تم توثيقها بدقة متناهية، وبطريقة مرتبة وفق سجلات سنوية مؤرخة باليوم والشهر والتاريخ الهجري([1])، ومما يجعل الأفق يتسع داخل هذه الحجج أنها لم تكتب وتحفظ وتؤرخ وتوثق لخدمة علم التاريخ، مما يجعل الدراسة لهذه السجلات أمراً فيه نوع من الإبحار في توظيف مصدر جديد ومهم من مصادر التاريخ الحديث والمعاصر ألا وهو سجلات المحاكم الشرعية، ويمكن للباحث في مجال التاريخ تطويعها لتصبح مصدراً أصيلاً ضمن مصادر دراسته، فهي سجلاتٌ تشتمل على معلومات غنية من تسجيلات يومية موثقة بدقة؛ إذ يشعر القارئ من خلال تفصيلات كل حجة وكأنه جالسٌ مستمعٌ للقاضي في غرفة المحكمة لشدة الوصف والدقة في صياغة الحجج.

عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (ت 1143هـ/1731م)، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز:

يعتبر عبد الغني النابلسي من الرَّحالة العرب المسلمين الذين جابوا أصقاع بلاد الشام ومصر والديار الحجازية. فقد كانت كتاباته نابعة من المشاهدة على أرض الواقع، وقد عاش عبد الغني النابلسي ما بين القرنين 11و12م حيث بلغ من العمر 90عاماً ونيف، واشتهر بمؤلفاته العديدة التي منها أوصاف الرحلات التي قام بها ما بين دمشق والقدس، وقد دخل النابلسي إلى فلسطين وجابها بلدةً بلدةً بل قريةً قريةً، وكان ينزل في القرى التي يصل إليها، ويصف طبيعة أهلها وحياتهم العامة بأسلوب السجع، وكثيراً ما ينطق ارتجالا بعض أبيات من الشعر في تلك المنطقة، ويثبت هذه في وصفه. وقد زار النابلسي مدينة نابلس سنة1101هـ/ 1690م. واستغرقت رحلته كاملة388 يوماً.

قَسَّمَ النابلسي كتابه إلى ثلاثة أقسام، جعل القسم الأول في التجوال في البلاد العربية الشامية، والثاني في البقاع المصرية، والثالث في الوصول إلى الديار

([1]) هناك بعض الحجج ذكر فيها تاريخ السنة فقط دون اليوم والشهر.

الحجازية، حيث يصف النابلسي في مؤلفه الأماكن التي وطأت قدماه عليها وصفاً دقيقاً، وبخاصة فيما يتعلق بالمزارات والأماكن الدينية: المساجد والمقامات وقبور الصالحين.

استفادت الدراسة من هذا المَعين الذي يُعد مرآة حقيقية تعكس واقع مدينة نابلس من خلال زيارته إليها ومكوثه فيها ووصفه لخيرات المدينة من الزراعة وطبيعة التضاريس فيها إضافة إلى العادات التي كانت سائدة عند أهلها.

إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء:

جاء كتاب إحسان النمر تاريخ جبل نابلس والبلقاء في أربعة أجزاء لم تؤلف دفعة واحدة، وإنما تم كتابة اجزائه في فترات مختلفة متباعدة؛ إذ تمَّ التطرق لمدينة نابلس في العهد العثماني، والعهد المصري، وفترة الانتداب البريطاني وأسهب في توضيح الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة نابلس، وتنبع قيمة هذا الكتاب في انه خط بيد أحد أبناء نابلس، وأن كل تسجيلاته عن مدينة نابلس نابعة من معاصرين لفترة الحكم المصري والعثماني، ومنقولة بالسماع عن أجداده بطريقة متواترة كتابيا أو نقلاً قصصياً شفوياً، وأنَّ بعض تسجيلاته نبعت مما لمسه، ووقع بصره عليه من المخلفات الأثرية المعمارية سواء المدنية أو الدينية، فقد رسم صورة واضحة لطبيعة الحياة في نابلس وأسهب في توضيح أسماء وكنى العائلات التي سكنت نابلس.

مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين:

أفرد الدباغ الجزأين الأولين من كتابه بلادنا فلسطين، الواقع في10 أجزاء، للحديث باسترسال عن الديار النابلسية التي أولاها اهتماماً كبيراً حيث إن القارئ المتصفح لكتابات الدباغ عن مدينة نابلس يجد أنه قد تناول المدينة من رأسها إلى أخمص قدميها، فقد وصف لنا طبيعة المدينة جغرافياً من أنهار وينابيع وسهول ووديان وجبال، بالإضافة إلى المناخ ثم عرَّج في الحديث على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والتطور الذي شهدته المدينة على مر العصور، وما احتضنته من حضارات وشعوب ودول. لذلك رأت الدراسة في مؤلفه ذخيرة علمية غير منقطعة في غالبية فصولها مما جعل الاستفادة من كتابه ضرورة ملحة على الدوام فقد كان أسلوبه واضحاً ويسيراً لا تعقيد فيه، ويجد فيه الباحث في مختلف

مدن فلسطين معلومات رصينة واضحة يسهل طلبها إلى مائدة العلم والبحث، ويتصف الكتاب بالموضوعية والتنوع في مختلف أجزاء كتابه.

سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا:

احتوى كتابه عدداً من الجداول والخرائط والرسوم الخاصة بتاريخ سورية في عهد إبراهيم باشا، فقد استهل أبو عزالدين كتابه بالحديث عن محمد علي باشا منذ ولادته إلى توليه عرش مصر. فقد بيَّن أبو عزالدين أنَّ النصف الثاني من ق18م قد شهد ولادة عدد من عظماء الرجال، وخص بالذكر نابليون بونابرت القائد الفرنسي المشهور، ومحمد علي باشا عزيز مصر، وهو يتحدث في كتابه عن طموح محمد علي في الاستيلاء على بلاد الشام التي كانت تنعت باسم سوريا، ويصف كل موقعة بينه وبين العثمانيين فأحياناً يطلق عليها اسم موقعة وتارة أخرى يطلق عليها اسم فتح كفتح عكا وفتح دمشق وموقعة بيلان وقونية. ثم يسهب أبو عزالدين في الحديث عن التقسيم الإداري لبلاد الشام، والقضاء والمالية والحياة الاقتصادية التي استشفت منها الدراسة صورة علمية تاريخية عن مدينة نابلس، بالإضافة إلى انه يتطرق للحديث عن الثورات التي قامت في وجه حكومة محمد علي، ومنها: ثورة نابلس وقد أطلق عليها وكثيراً من المؤرخين اسم ثورة فلسطين، لاتساعها وشمولها ومشاركتها في ثورة القدس والخليل وغيرها، وقد تناولت الدراسة هذه الثورة وخصتها بحديث موصول كاشف، ثم يعرِّج أبو عزالدين في الحديث على نهاية الوجود المصري في سورية، وذلك بانسحاب إبراهيم باشا، وأثر حكومة محمد علي باشا في بلاد الشام.

أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير:

يقع هذا الكتاب في أربعة مجلدات وكل مجلد يتحدث عن فترة زمنية محدَّدة:

المجلد الأول: من سنة 1225- 1247هـ/ 1810- 1832م

المجلد الثاني: من سنة 1248- 1250هـ/ 1832- 1835م

المجلد الثالث: من سنة 1251- 1254هـ/ 1835- 1839م

المجلد الرابع: من سنة 1255- 1256هـ/ 1839- 1841م

يعد هذا المؤلف بياناً لجميع وثائق الشام المحفوظة والموجودة في المحفوظات الملكية المصرية التي تعود إلى عهد محمد علي باشا، ويعتبر هذا الكتاب خيرُ دليل للمؤرخين في هذه الحقبة من تاريخ الأقطار العربية، إذ تحتوي المحفوظات الملكية المصرية في الوقت الحاضر على ثلاثة أقسام رئيسة هي: محفوظات سراي عابدين الملكية، ومجموعة الدفتر خانة المصرية، وسجلات القضاء الشرعي.

المحفوظات الملكية المصرية عبارة عن مجموعة دفاتر وأوراق والدفتر ثلاثة أنواع: دفاتر تنسيق وترتيب، ودفاتر قيودات، ودفاتر فهارس، وتشمل دفاتر القيودات الإيرادات والايفادات السنية وقرارات المجالس والدواوين، والصادر في محتويات الدفتر محفوظ بنصه الكامل أما الوارد فهو ملخص تلخيصا. أما أوراق المحفوظات فإنها إيرادات سنية صادرة، أو مفاوضات واردة، أو فرمانات سلطانية أو غيرها، وتغلب اللغة التركية على العربية في مفاوضات النصف الأول من ق19م، ثم تقوى العربية على التركية تدريجيا في النصف الثاني من القرن نفسه حتى تطغى عليها، ولهذا كان قد ترجم المهم منها أما اللغات الأجنبية فإنها نادرة الوجود بين المحفوظات التي تعود إلى عهد محمد علي باشا حيث احتوت المحفوظات الملكية المصرية على الجرنال: وهو بيان يومي بأعمال الهيئات الإدارية أو زبدة المصالح بلغة الأوراق نفسها فالجرنال كان يقدم شورى الخاصة مرة أو أكثر كل أسبوع([1]).

ونتيجة لذلك فقد استفادت الدراسة من هذه الوثائق الغنية بالمعلومات الضرورية والهامة؛ إذ ما برحت الدراسة تستقي من نبعها لما احتوته من نصيب وافر من المراسلات اليومية عن تطور الأوضاع في بلاد الشام، سواء بين إبراهيم باشا في الشام ووالده محمد علي باشا في مصر، أو بين إبراهيم باشا وقادته وعماله في مختلف الأقاليم، وكذلك أبيه.

([1]) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير، م1، المطبعة الامريكية، بيروت، 1940- 1942م، ص ز- ع، سيشار اليه فيما بعد اسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية.

محمد علي الأنسي، قاموس اللغة العثمانية المسمى الدراري اللامعات في منتخبات اللغات:

يعد هذا الكتاب قاموساً للغة العثمانية مكتوبا باللغة العربية، وفيه مادة علمية غنية لتفسير معاني المصطلحات العثمانية وتوضيحها، إذ إن محمد علي الانسي كان باشكاتب محكمة بداية بيروت، ويحتوي قاموسه على الكلمات التركية والألفاظ الفارسية، والإفرنجية المتداولة في اللغة العثمانية، والقاموس مرتب ضمن الأحرف الهجائية للغة العربية، مما يُسهِّل على الباحث عن المصطلح العثماني الوصول إلى المعنى المراد معرفته حيث فُسر كل معنى بطريقة واضحة ميسرة، وغير مطولة.

الموسوعة الفلسطينية: هيئة الموسوعة الفلسطينية، تتمثل برئيس مجلس الإدارة احمد المرعشلي، ورئيس التحرير عبد الهادي هاشم، والمستشار أنيس صايغ:

ركزت الموسوعة الفلسطينية في بداية حديثها عن مدينة نابلس على تاريخها، وما توالت على المدينة من حضارات، سواء حضارة الرومان أو العرب المسلمين والصليبيين والدول الإسلامية التي نثرت تاريخها في أرض مدينة نابلس، ثم تعرضت الموسوعة إلى أصل التسمية والأسماء التي نعتت بها نابلس، وبعد ذلك تطرح الأوضاع الطبيعية من تضاريس ومناخ، بالإضافة إلى ذكر أهم المنشآت الدينية والمدنية التي تستقر على أرض المدينة كالمساجد والمزارات والآثار والمنازل المتعددة.

وهذا ديدن غيرها من الموسوعات التي تناولتها الدراسة مثل: "موسوعة معجم بلدان فلسطين" لمحمد شراب، و"موسوعة المدن الفلسطينية" لمسلم الحلو، و"موسوعة كل مكان وأثر في فلسطين" ترجمة عيد حجاج، و"موسوعة المدن والقرى الفلسطينية" لآمنة أبو حجر، لقد اتصفت هذه الموسوعات بتنوع معلوماتها فإذا اقتضبت وشحت بعض المعلومات في إحدى الموسوعات نجد في غيرها تفصيلاً واسترسالاً، فالموسوعة تعتبر كماً هائلاً وكبيراً من المعلومات اللطيفة ذات الأبعاد المختلفة لذلك لا تكاد تخلو دراسة دون الرجوع إلى عدد من الموسوعات الخاصة بموضوع الدراسة.

ياقوت الحموي، معجم البلدان:

هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(ت626هـ/ 1228م)، ولا يعلم شيء عن تاريخ مولده لأنه أُخِذَ في صغره أسيراً من بلاد الروم إلى بغداد مع الأسرى فاشتراه تاجرٌ اسمه عسكر الحموي فنسب إليه، وقيل له ياقوت الحموي، وهذا التاجر كان جاهلا في الخط فوضع ياقوت في الكُتّاب، ليتعلم وينتفع به لأعمال التجارة. فتعلم ياقوت النحو واللغة، وبعد فترة أعتقهُ التاجر فعمل ياقوت في نسخ الكتب واحتوى مؤلفه على عدة أجزاء مرتبة حسب الأحرف الهجائية من الألف إلى الياء، وتناول موضوعات بشكل مباشر وبلغة سليمة واضحة سهلة الفهم على القارئ، حيث أورد سبب تسمية نابلس بهذا الاسم، والذي يعود إلى ناب الحية التي اسمها لُس، والتي عدها معظم المؤرخين أنها قصة اسطورية إن لم تكن خرافية، وذلك لان ياقوت نقلها عن إحدى أهالي مدينة نابلس أي من عامة الشعب بالإضافة إلى وقوف ياقوت الحموي على ذكر مياه نابلس الجارية ومزروعاتها التي تغلب شجرة الزيتون على معظم أشجارها.

أكرم الراميني، نابلس في القرن التاسع عشر:

لقد كان هذا الكتاب عبارة عن أطروحة لنيل درجة الماجستير في التاريخ في الجامعة الأردنية. تناول الراميني مدينة نابلس ضمن فترة طويلة هي قرن من الزمان إذ سلط الضوء على مدينة نابلس في القرن التاسع عشر من عدة نواحٍ اجتماعية واقتصادية وادارية فقد أتسم كتابه بالشمول. وانه قد وقع في بعض الهفوات أظهرها إحسان النمر في كتيبه الموسوم بعنوان" نقد رسالة الراميني عن نابلس"، وإن هذه الدراسة قد اطلعت على ذلك كله، وانعمت النظر إليه وخرجت بصورة جلية ايجابية توضيحية أعانت موضوع الرسالة لما اشتمل عليه كتاب الراميني من موضوعات هامة زاد في عنايتها وتقويمها نقد إحسان النمر.

نبال تيسير خماش، تراجم مدينة نابلس وريفها في 900عام:

جاء الكتاب على شاكلة كتب التراجم التي تتناول كل شخصية على حدة وتحللها. بدأت نبال خماش من الحياة الاجتماعية للمُترجَم له فتحدثت عن ولادته ووفاته والدور الذي لعبه في مدينة نابلس سواء أكان أديبا أم فنانا أم اقتصاديا أم

سياسيا، ومما أضفى رونقا على الكتاب هو ربط كل شخصية مع ما قبلهـا أو مـا بعدها بصورة خلقت تناغماً وترابطاً كشبكة عنكبوتية ضمت شخصيات على مـدى9 قرون.

وأسهبت خماش في طريقة عرضها للترجمة، فلم تتناول مدينة نابلس، على الرغم من كثرت ما وجد فيها من شخصيات، وإنما تطاولت إلى ريفها فأخرجت منه عدة تراجم كانت متوقعة في مكانها غير مشهورة كالشخصيات القاطنة في المدينة. في حين كان أسلوب العرض يسيراً يميل إلى الوضوح وعدم التكلف، وحقق الكتاب التناسق بين أجزائه مما أضفى على الكتاب جواً من الكياسة في الحوار.

القاضي بيير كرابيتس، إبراهيم باشا:

هو عبارة عن مقال كتبه كرابيتس في مجلة المقتطف، والتي نشأت في سنة 1876م على يد الدكتور يعقوب صروف والدكتور فـارس نمـر، حيـث وضَّـح كرابيتس في مقالته عن إبراهيم باشا تحليلاً لحياته، وللأعمال التي قام بها في بـلاد الشام عندما ضمها إلى ملك والده محمد علي باشا، والكيفية التي تعامل بها إبـراهيم باشا مع سكان البلاد والمدن التي ضمها للحكم المصري.

بهجت صبري، المظاهر العمرانية في مدينة نابلس خلال النصف الأول من القـرن التاسع عشر الميلادي:

يشتمل مقال بهجت صبري المنشور ضمن مجلة النجاح في نـابلس علـى المظاهر العمرانية التي تطورت، وما صاحبها من تغيير سواء في الشكل أو البنيـة بأكملها، فقد وصف المنازل، وما احتوته من طبقات ووصف كل طبقة وما تحـوي من غرف عدة، وما يوجد فيها من مرافق عامة، وخزان المياه الذي يعتبر صهريجاً تتجمع فيه المياه في فصول الشتاء، حتى يتم استغلالها في فـصل الـصيف الحـار الجاف، وركز بهجت صبري على الأشكال العمرانية المتعددة، وما احتـوت عليـه المدينة من أزقة ومحلات (نواحي)، وعقبات (المكان المرتفع). بالإضافة إلى عـدد من الأشكال العمرانية الأخرى التي استفاد النابلسيون فـي بنائهـا مـن الحجـارة الموجودة في المنطقة من جبلي عيبال وجرزيم.

الأب لامنس اليسوعي، إبراهيم باشا في سورية:

هو مقال كتبه لامنس في مجلة المشرق، وهي مجلة كاثوليكية تحتوي مباحث علمية، وأدبية، وفنية، بإدارة آباء كلية القديس يوسف لصاحب امتيازها الأب لويس شيخو اليسوعي، لقد أوضح لامنس الأوضاع الإدارية والحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها سورية عند دخولها تحت سلطة إبراهيم باشا حيث إن سورية في البداية استقبلت إبراهيم باشا استقبال الفاتح المحرر، ثم ما برحت أن وجدت نفسها في قصر جديد من السطوة والتضييق، فضجَّت وثارت ثائرتها، ثم يذكر لامنس ما قام به إبراهيم باشا سعيا لتهدئة الأوضاع السياسية والإدارية في المنطقة.

أمين محمود، الإدارة المصرية في بلاد الشام وبداية ظهور المسألة الفلسطينية 1831- 1840م:

فصّل أمين محمود الهيكل الإداري الذي ساد بلاد الشام أثناء الوجود المصري في مقالته المنشورة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية. فقد تناول أمين محمود في البداية الوظائف العليا في السلك الإداري المصري، ثم عرج على الوظائف التي كانت منتشرة داخل الإقليم والمتسلمية بعامة في بلاد الشام، وما يميز الوظائف التي تناولها أمين محمود هو التركيز ليس فقط على طبيعة الوظيفة بل الولوج في تحليل الشخصية التي كانت تتولى هذه الوظيفة أو تلك؛ ومثال ذلك شخصية حنا بحري الذي شغل منصب المشرف المالي العام في الحكومة المصرية، وكذلك شخصية محمد شريف الذي كان حكمدار إيالات(ولايات) الشام وغيرهم، وكأنه يريد أن يوصل القارئ إلى أثر التركيب والانعكاس الشخصي على القرارات والإجراءات الناتجة عن الموظف.

مواقع الانترنت:

تزودت الدراسة بعدد من مواقع الانترنت -المرفقة في قائمة المصادر والمراجع- التي اتصفت بأسلوب السلاسة. فقد كانت موجزة في تناول المعلومات والأحداث، وعدم التركيز على حدث أو ظاهرة معينة، ومحاولة معالجتها بأسلوب منهجي. إذ يمكن وصف المعلومات الواردة في مواقع الانترنت بأنها معلومات ذات

أبعاد مقتضبة تضع المتصفح لها في قلب الحدث دون الإحاطة بالموضوع من كافة جوانبه، وعلى الرغم من ذلك فإن موضوعاتها مرنة تخلو من الالتباس أو التضارب في أفكارها، وقدمت هذه المواقع على شبكة الانترنت بوتقة من الأحداث عن مدينة نابلس على مر تاريخها، حيث أفادت ثنايا هذه الدراسة في صقل الحياة التي عاشتها المدينة كلما تعاقبت عليها حضارات وأمم حطت أقدامها في نابلس، فالانترنت يعتبر مركزاً وصرحاً علمياً حديثاً ضخمةُ حدوده كثيرةٌ فوائده، فهو عقلٌ ويدٌ تسند الباحث لصبغ علمه بصفة الشمول.

1. 3 التمهيد:

نبذة تاريخية عن مدينة نابلس.

تعتبر مدينة نابلس كغيرها من مدن بلاد الشام (دمشق، حلب، حمص بيروت، صيدا، طرابلس، القدس، يافا، غزة، عمان، البلقاء، الكرك) التي قامت على أرضها العديد من الحضارات ووطئ أرضها كثير من الأمم والشعوب، فقد عاصرت مدينة نابلس دولاً وشعوباً تركت بصمات واضحةً وخالدة في المدينة، وتمثلت تلك البصمات التي تعتبر شاهداً مادياً، في الأماكن الأثرية المتعددة المنتشرة في أحياء المدينة وضواحيها، مما أضفى طابع الإرث الحضاري الذي اكتسبته نتيجة الوجود الروماني والإسلامي فيها، والعرب الكنعانيون الذين يعتبرون أقدم مَن سكن نابلس.

وقد لعبت عدة ظروف وأسباب لوجود هذه الأمم والشعوب، حيث إن تلك الحضارات ما كان لها أن تستوطن هذه المدينة أو تلك إلا لوجود ظروف طبيعية ومناخية ودفاعية شجعت في البداية على استقطابها والاستقرار فيها سكاناً ودولاً، ومن تلك الظروف: طبيعة مناخ نابلس المعتدل والذي استلهمته من مناخ البحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى الموقع الجغرافي الاستراتيجي المتميز حيث تقع المدينة بين قلعتين شامختين أوجدتهما الطبيعة الإلهية هما جبلي عيبال وجرزيم فقد أعطى هذانِ الجبلان تحصيناً قوياً ثابتاً في وجه أي اعتداء خارجي، فهي مدينة محتضَنة من قِبل كفين مرتفعين، إضافة إلى البعد المكاني الذي تقع فيه المدينة فإنها

ترتبط وجبالها بسلسلة جبال القدس فهي ملتصقة جغرافيا بالقدس عاصمة فلسطين، حاضنة المسجد الأقصى المبارك، ومسجد قبة الصخرة المشرفة، وكنيسة القيامة، ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومعراجه منه إلى سدرة المنتهى.

لا ريب أن مدينة نابلس ما فتئت تعاقب عليها حضارات وشعوب ودول متعددة تركت كل منها مخلفاتها التي تشهد بوجودها، فقد تناغمت تلك الحضارات داخل المدينة، ويُلمس ذلك من خلال فن العمارة فقد استفاد المعماريون من الحجارة المتوافرة في جبال نابلس، فأبدعوا في صقل وصياغة ترانيم الشكل والنوع فخرج البناء على درجة عالية من الهندسة المعمارية، وفن الخطوط الإسلامية الجميلة المتمثلة في المساجد والمقامات والمزارات والأماكن الأثرية المنتشرة في المدينة.

اعتبرت فلسطين قلب الوطن العربي لأنها تصل الأقطار العربية الآسيوية بالأقطار الإفريقية، وتعد مدينة نابلس القلب بالنسبة لفلسطين؛ ولأنها تقع في منتصف المدن الفلسطينية تصل شمالها بجنوبها، ولذلك فهي بمثابة المركز الحيوي في هذا القلب للمدن الفلسطينية([1])، ومدينة نابلس من المدن العربية الفلسطينية الموغلة في القدم([2])، فقد ورد ذكر مدينة نابلس في رسائل تل العمارنة، وتقارير(تحوتمس الثالث) حيث أشارت إلى أنَّ نابلس قد تأسست زمن الكنعانيين، وكانت إحدى مدنهم، حيث وردت باسم(Shakmi) شاكمي، وقد حُرِّف هذا الاسم فيما بعد إلى شكيم، وأول من سكن مدينة نابلس من العرب الكنعانيون هم: (الحَوِيون) و(الجرزيون)([3]).

تشير المصادر التاريخية الى أن وجود نابلس يرجع إلى الآموريين الساميين العرب الذين وُجدوا وسط فلسطين وشمالها، وجاءها في الفترة نفسها الكنعانيون، وأسسوا هذه المدينة فوق أنقاض تعود إلى العصر الحجري الحديث كما

([1]) مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، دار الهدى للطباعة والنشر، حيفا، 2002م، ص17؛ سيشار إليه فيما بعد الدباغ، بلادنا فلسطين.

([2]) رئيسة عبد الفتاح طلب العزة، نابلس في العصر المملوكي(648- 923هـ/ 1250- 1517م)، ط1، تقديم سعيد عبد الله جبريل البيشاوي، منشورات دار الفاروق للثقافة والنشر، نابلس، 1999م، ص17؛ سيشار إليه فيما بعد رئيسة طلب العزة، نابلس في العصر المملوكي.

([3]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، المشرف العام ورئيس التحرير حسين العَودات، المؤلفون مسلم الحلو وآخرون، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1990م، ص715؛ سيشار إليه فيما بعد مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية.

تدل عليه فخاريات مدينة أريحا، فبنوا قرية شكيم، وتعني المنُكب أو النَجْـدة حيـث بنيت هذه القرية القديمة، إلى الشرق من المدينة الحالية قرب مخيم بلاطة الحالي([1]).

وعندها قدم إلى نابلس إبراهيم الخليل عليه السلام بعد هجرته من بلاد مـا بين النهرين بعد مروره بحلب، ومن المرجح انه على جبل جرزيم عـزم إبـراهيم عليه السلام تقديم ابنه أضحية لله تعالى، وهذا ما يؤكده السامريون، وليس في جبـل موريا في بيت المقدس كما يزعم اليهود. حيث يعود أقدم ما وجد في نابلس من أيام سيدنا إبراهيم من تاريخ إنها أول مدينة نزل فيها بعد أن قدم من أور في ق19 ق.م، وبنى فيها أول مذبح في بلاد كنعان حيث تذكر التوراة المكان الذي نزل فيه إبراهيم عليه السلام وهو شكيم باسم(بلاطة مورة) الذي يعتقد أنها تقع بجوار قريـة بلاطـة الحالية الواقعة على مدخل مدينة نابلس شرقا([2])، إذ إن الاسم الحـالي لبلاطـة قـد حرف عن الاسم الأول.

واستمرت نابلس تستقبل ضيوفها الأنبياء حيث سكنها يعقوب بـن اسـحق عليه السلام بعد عودته من الجزيرة(ما بين النهرين أو العراق) والتي تركهـا بعـد نزاع وقع بين أولاده شمعون ولاوي كما تقول التوراة([3]) وبين شكيم بن حمور الذي اعتدى على أختهم دينة أي دينونة التي أغواها، ودفعهم اعتداؤه هذا إلـى هجـومهم على سكان شكيم وقتلهم حمور وابنه، ونهبهم المدينة وهجرتهم إلى بيت إيـل وهـي قرية(بيتين) الواقعة شمال شرق البيرة إلا أنهم عادوا إلى مدينة شكيم ثانيـة، وبنـى يعقوب ما يسمى بجامع الخضراء بعد موت ابنه يوسف وحزنه الشديد عليه([4])، ولـم يرد ذكر مدينة نابلس بعدها حيث انقطع ذكرها في التوراة إلا بعد أن دخـل يوشـع المدينة بصحبة قومه وبنى على جبل عيبال مذبحا للآلهة، ويقول الـسامريون جبـل

([1]) آمال عزت السجدي، بلدة نابلس القديمة في صور قبل الاجتياح الإسرائيلي في نيسان عام 2002م وبعده، مطابع الفنار، عمان، 2002م، ص14؛ سيشار إليه فيما بعد آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة.

([2]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص715

([3]) بعد أن عاد يعقوب من العراق من عند خاله لابان نزل في شكيم، واشترى من رئيسها حمور قطعة أرض نصب فيها خيمته، ومن المعروف أن يعقوب وهب هذه الأرض لابنه يوسف، والتي تقع فيما يقال شرقي نابلس بالقرب من بئر يعقوب الذي حفره بنفسه، والمعروف اليوم باسم بئر السامرية؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص98- 99

([4]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص715

جرزيم، وقدّم قرابين السلامة، وربما كان المذبح هو الست سليمية، وهي عبارة عن صخرة على جبل عيبال، وهي تحريف السلايم أي ذبائح السلامة([1]).

وبعد انقسام اليهود على أنفسهم، وذلك بعد موت سيدنا سليمان حيث اتخذها يربعام بن نباط عاصمة له في سنة923ق.م([2])، والتي عرفت في التاريخ باسم المملكة الإسرائيلية، وعندما نقلت العاصمة من شكيم إلى سواها أخذت أهميتها تقل نوعا ما وخاصة عندما بنى عُمري بلدة السامرة التي تبعد8 كم عن مدينة نابلس مدينة(سبسطية) حالياً، والتي اتخذها عاصمة له([3]).

وقعت نابلس بأيدي الآشوريين الذين عاثوا في الأرض فساداً، وسبوا أهل السامرة – سبسطية– وخلفوا الفساد والخراب. وقد سكن شكيم فئة من اليهود لا تعترف من التوراة بغير الأسفار الخمسة المنسوبة إلى النبي موسى عليه السلام، وتعرف هذه الفئة بالسامريين نسبة إلى السامرة، وقد ناصبهم اليهود العداء منذ ظهورهم، ويرجح أن يكون اسم(Mabarakata) مابارِكتا الآرامي، والذي يعني مدينة البركات قد أطلق على نابلس في عهد هؤلاء السكان؛ إذ يطلق السامريون هذا الاسم على جبل جرزيم حالياً، ولا يزال السامريون موجودين في مدينة نابلس حتى يومنا هذا([4]).

ونتيجة لموقع المدينة الاستراتيجي الهام اعتبرت نابلس عاصمة الإقليم الجبلي؛ فهي تقوم وسط منطقة غنية بينابيع المياه العذبة، لذلك امتازت بالثراء عبر حلقات التاريخ المختلفة، ووضع المدينة هذا جعل الإسكندر المقدوني يحتلها، ويسمح لحاكم شكيم سنبلط الذي أطاعه([5]) ببناء هيكل على جبل جرزيم، وتتضارب آراء المؤرخين حول تاريخ البناء فيذهب البعض أنه بني سنة 904ق.م بإذن من القيصر الفارسي دار يوسف، ويذهب آخرون أنه بني سنة 300ق.م، ويقول البعض من

([1]) آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة، ص15

([2]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص715

([3]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص99

([4]) مسلم الحلو، قصة مدينة نابلس، سلسلة المدن الفلسطينية تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دائرة الإعلام والثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، (د. ن)، (د. ت)، ص34؛ سيشار إليه فيما بعد مسلم الحلو، قصة مدينة نابلس؛ انظر آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة، ص15

([5]) رئيسة طلب العزة، نابلس في العصر المملوكي، ص17

المؤرخين أنه بني في ق5ق.م([1])، ويرجح الدباغ ومسلم الحلو أن الهيكل أقيم بناؤه سنة 409ق.م، وقد هدم المكابيون هذا الهيكل على يد يوحنا كافوس سنة129ق.م، ودخلها المسيح عيسى عليه السلام حيث التقى مع المرأة السامرية قرب بئر يعقوب، ودار بينهما حديثٌ كما ذكر في إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع([2]).

أما في الحروب الرومانية اليهودية فقد تمرد السامريون، وذُكر أن جمهوراً غفيراً منهم اجتمع على جبل جرزيم، واستعدوا لمقاومة الرومان الذين احتلوا فلسطين سنة63ق.م فأرسل إليهم فاسبسيانوس الروماني القائد سيرياليس حملة عظيمة حاصرت المتمردين في جبل جرزيم، وقتلت منهم نحو11 ألف شخص، وهدمت المدينة، وكان ذلك سنة67م، وبعد سنة70م أمر فسبسيانوس بنقل حجارتها، وتجديد بنائها الذي هدم في غرب المدينة القديمة في مكان يقع إلى الغرب من مركزها الحالي، وأطلق عليها اسم(Flavia-Neapolis) فيلافيا- نيابوليس، وفيلافيا اسم عائلته، ونيابوليس يعني: المدينة الجديدة، ومنها لفظ مدينة نابلس الحالية، وفي أوائل ق2م أقام الإمبراطور الروماني هدريان بمساعدة أهل صيدا الفنيقيين هيكلاً لجوبيتر على جبل جرزيم فكان بناؤه نقمة على السامريين لبنائه مكان هيكلهم([3]).

انتشرت المسيحية في مدينة نابلس في ق4م، وعلى إثرها ازدهرت مكانة نابلس، وأصبحت مركزاً للأسقفية، أما في ق5م، وبعد أن اشتد الاضطراب بين المسيحيين واليهود بعد أن ذبح السحرة مسيحيي نابلس، أمر الإمبراطور زينو بطرد اليهود من جبل جرزيم، وبإقامة كنيسة على قمة جبل جرزيم، وهي كنيسة مريم العذراء التي بنيت مكان هيكل السحرة حيث أقام سور قوي متين حولها([4])، وفي عهد الإمبراطور جستنيان527- 567م ثار السامريون، وعينوا يوليانوس ملكاً عليهم، ثم استولوا على نابلس، وقتلوا الكثير من أهل المدينة، وقتلوا أسقفها، وكهنتها، ودمروا معظم القرى المجاورة، فأرسل الرومان عندئذ جنودهم لاسترداد نابلس، وإخماد ثورة السامريين حيث قتلوا الكثيرين وباعوا عدداً كبيراً من

([1]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص715
([2]) آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة، ص15
([3]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص101- 102
([4]) مسلم الحلو، قصة مدينة نابلس، ص35

السامريين كعبيد، وهرب الكثير منهم إلى بلاد فارس طالبين حماية ملكها كسرى. وأمر الإمبراطور جستنيان ببناء قلعة وسور خارج السياج الذي بناه الأمبراطور زينو حول كنيسة مريم العذراء، وأعاد بناء خمس كنائس كانت قد هدمت على جبل جرزيم([1]).

وتشرفت مدينة نابلس، بعد هذه الأحداث والحضارات والأمم والشعوب التي نزلت المدينة، بدخولها في ظل الإسلام، وذلك عندما فتحها القائد العربي المسلم عمرو بن العاص في عهد الخليفة أبي بكر الصديق11- 13هـ/ 632- 634م، فقد عقد أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيوش لأربعة من كبار الأمراء والصحابة([2]) حيث أن عمرو بن العاص فتح غزة وسبسطية ونابلس، وأعطى الأمان لأهل هذه المدن على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم. وأن الجزية على رقابهم، والخراج على أرضهم([3])، وبذلك تكون مدينة نابلس قد دخلت عهداً جديداً في حياتها، ضرب جذوره في تاريخ المدينة إلى يومنا هذا، وهي مرحلة لها طابع ميز المدينة كما ميز المدن التي فتحها الإسلام، والتي عاشت روح ونبضة الإسلام الذي أعطى ولم يأخذ، وترك أخلاقاً تختلف عما عاصره سكان المدينة فيما سبق.

وازدهرت نابلس في عهود الدول الإسلامية؛ فقد كانت نابلس بعد الفتح الإسلامي إحدى المدن المكونة لجند فلسطين، وحينما قامت الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان سنة40هـ/ 661م أصبحت نابلس تابعة لعاصمة الخلافة الأموية في دمشق، وبدخول عصر بني العباس، وقيام الدولة العباسية

([1]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص617؛ انظر الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص103- 104

([2]) عقد أبو بكر الصديق لواء لأربعة من كبار الصحابة لفتح بلاد الشام فالجيش الأول كان على رأسه عمرو بن العاص الذي توجه إلى فلسطين. أما الجيش الثاني فبقيادة شرحبيل بن حسنة، وكانت وجهته الأردن. أما الجيش الثالث فتولى قيادته يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، في حين تولى قيادة الجيش الرابع أبو عبيدة عامر بن الجراح الذي كانت وجهته حمص، وكان مركز القيادة منطقة الجابية، وقد جعل أبو بكر الصديق أبا عبيدة أميراً عاماً لهذه الجيوش الأربعة عند اجتماعها معا؛ عبد الله صالح كلبونة، تاريخ مدينة نابلس 2500ق.م- 1918م، ط1، طبع بتمويل من المهندس سعيد علي شرف، نابلس، 1993م، ص33؛ سيشار إليه فيما بعد عبد الله كلبونة، تاريخ مدينة نابلس.

([3]) البلاذري احمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1978م، ص34؛ سيشار إليه فيما بعد البلاذري، فتوح البلدان.

سنة132هـ/749م انتقلت تبعية مدينة نابلس إلى عاصمة العباسيين بغداد، واستمر ذلك إلى أن استأثر احمد بن طولون حاكم مصر العباسي الذي بسط نفوذه على بلاد الشام بمرأى من الخليفة العباسي فدانت مدينة نابلس بالولاء والتبعية للدولة الطولونية في مصر سنة264هـ/ 877م([1]).

ودخلت مدينة نابلس مرحلة عصيبة باستيلاء الصليبيين عليها فقد شملت الحروب الصليبية بلاد الشام، وامتدت تلك الحروب من سنة489- 691هـ/ 1096- 1292م، وقد نُعت الصليبيون في المصادر التاريخية العربية. وعند عامة العرب آنذاك باسم الفرنجة([2]) استولى الفرنجة على نابلس في أواخر تموز سنة 492هـ/1099م بقيادة تنكرد صاحب إنطاكية وحاكمها، وبنى بلدوين الأول أحد قادة الصليبيين، والذي أصبح ملكاً على القدس قلعة لحمايتها على قمة جبل جرزيم. ومما يجدر ذكره أن مدينة نابلس لعبت دوراً بارزاً في عهد الفرنجة إذ قام بلدوين الثاني سنة1120م بعقد مجمع كنسي كبير في نابلس([3])، ولم يغادر الفرنجة هذه المدينة إلا بعد أن تركوا بصمات واضحة دالة على وجودهم؛ فقد خلَّفوا وراءهم الآثار التاريخية، والدينية كالكنائس والأديرة([4]).

وقد زار المدينة في فترة الاحتلال الصليبي الرحالة المسلم السمعاني المتوفى سنة562هـ/ 1167م، وذكرها في كتابه الأنساب بقوله: (استولى عليها[مدينة نابلس] الفرنج والسلطنة لهم)([5])، وقد هيأ الله عز وجل للأمة العربية الإسلامية الأيوبيين لوضع حدٍّ فاصل في تاريخ الحروب الصليبية بخاص، والتاريخ بعامة فقد دخل الأيوبيون مدينة نابلس سنة580هـ/ 1184م بقيادة حسام الدين محمد

([1]) عبد الله كلبونة، تاريخ مدينة نابلس، ص34- 37

([2]) الفرنجة: قبيلة من قبائل الجرمان استقرت في بلجيكا وفرنسا وأجزاء من ألمانيا وخلدوا اسمهم على فرنسا ، ولأهمية الفرنجة في تلك الفترة أطلق العرب على الأوروبيين بصفة عامة على اختلاف سلالاتهم وانتماءاتهم إلى دولهم اسم الفرنجة أو الإفرنج فالعرب المسلمون كانوا على وعي وفهم عميقين لمعنى المسيحية والصليبية علاوة على أنهم كانوا يفرقون أيضا بين مسيحية الشرق ومسيحية الغرب؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص111

([3]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص716

([4]) آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة، ص16

([5]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص112

بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين الأيوبي([1]) الذي وصل إلى نابلس وسبسطية فتسلمها، ووجد مشهد زكريا قد اتخذه القِس كنيسة فأعاده مشهداً كما كان، ثم قصد نابلس ونازلها وحاصرها، ولم يزل مقيما عليها حتى استأمنوه ووثقوا بأمانه، ثم سلموها، وخلصت مدينة نابلس وأعمالها له، وكان جميع أهلها وسكانها ونواحيها من المسلمين، وكانوا قد لاقوا شدة وقسوة عظيمة تخلو من الرحمة والعطف من قبل الصليبيين([2]).

حكم الأيوبيون نابلس، واتسم حكمهم بالعدل والرحمة، وجعلوا دستور عهدهم شرع الله المتمثل بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، فانتصر صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في معركة حطين سنة583هـ/ 1187م تلك المعركة التي جددت الحكم الإسلامي على تلك المنطقة بيد أن الصليبيين ما برحوا أن عادوا إليها بسبب الخلافات العائلية التي نشأت داخل الأسرة الأيوبية عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي([3])، واختلاف أبنائه من بعده حول تقسيم السلطنة الأيوبية([4]).

تعرضت مدينة نابلس في هذه الفترة لزلزال سنة1189م تهدمت على إثره مبانٍ كثيرة، ومات تحتها30 ألفاً من السكان([5]).

رأى صلاح الدين الأيوبي، بعد أن عقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين، أن يقوم بزيارة إلى البلاد التي حررها متفقداً أحوال الناس فيها، ومنصتاً لشكواهم، حتى يتسنى له رفع الظلم عنهم، فنزل نابلس قادماً من بيت المقدس في طريقه إلى سبسطية فكوكب الهواء، فبيروت ودونها من أعمال الساحل معرِّجاً بعدها على دمشق. فكان وصوله نابلس يوم الجمعة7من شوال سنة588هـ فواجهه فيها خلق عظيم يستغيثون، فسأل: مالِ هؤلاء؟ فأجابوا إنهم يتظلمون من ابن المشطوب([6]) وأصحابه، وهو راكب بين يديه، فقال له السلطان:(لو كان هؤلاء يدعون لك،

([1]) مسلم الحلو، قصة مدينة نابلس، ص36

([2]) إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج4، ط1، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، نابلس، 1975م، ص270؛ سيشار إليه فيما بعد إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء.

([3]) آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة، ص16

([4]) مسلم الحلو، قصة مدينة نابلس، ص36

([5]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص716

([6]) ابن المشطوب من القواد الذين اقطعهم صلاح الدين الأيوبي نابلس؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص113- 114

هيهات أن يسمع الله فكيف وهم يدعون عليك؟)، وبعد أن أزال صلاح الدين شكاوى النابلسيين ترك المدينة في اليوم التالي متجها إلى الشمال في طريقه إلى دمشق، وفي جنين ودَّعه ابن المشطوب. وكان وداعاً أبدياً بينهما حيث توفي بعدها ابن المشطوب([1]).

واسترسالاً في الحديث عن المراحل التاريخية–سالفة الذكر– التي مرت بها نابلس، فقد أسهبت المصادر في الحديث عن الكارثة الكبرى باستيلاء التتار بقيادة هولاكو على عاصمة الخلافة العباسية بغداد سنة656هـ/ 1258م([2]) وعبورهم الفرات، واستيلائهم على حلب سنة658هـ/ 1260م، ولما علم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، وهو بدمشق سقوط حلب رحل ومن معه من الجند إلى مصر، وفي أثناء اتجاهه أقام الملك الناصر بنابلس أياما، ثم رحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين ابن أبي زكري، والأمير علي بن شجاع، وبرفقتهما مجموعة من الجند([3])، وبعد مسير الملك الناصر من نابلس دخلها التتار بعد سقوط بغداد سنة657هـ/ 1258م([4]) أي بعد عام من سقوط عاصمة الخلافة بغداد. وقد هاجم التتار الجند الذين تركهم فيها الملك الناصر بغتةً، وقتلوا مجير الدين، والأمير علي بن شجاع وكانا أميرين مخلصين جليلين([5]).

وعند بروز المماليك على الساحة السياسية شكلوا قوة كبيرة بقيادة قطز المملوكي قضوا بها على التتار في معركة عين جالوت سنة658هـ/ 1260م([6])، فحكم المماليك نابلس باعتبارها إحدى المدن التي أزال عنها المماليك الخطر الخارجي المتمثل بالتتار([7])، ثم عاشت فلسطين، وبلاد الشام مرحلة طويلة بعد قضاء

([1]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص114

([2]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص716

([3]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص126

([4]) آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة، ص16

([5]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص126

([6]) آمنة إبراهيم أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، ج2، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2003م، ص895؛ سيشار إليه فيما بعد آمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية.

([7]) آمال السجدي، بلدة نابلس القديمة، ص16

العثمانيين على المماليك في معركة مرج دابق سنة 923هـ/ 1517م، فقد أصبحت مدن صفد وغزة والقدس ونابلس، وبلدان أخرى تابعة للدولة العثمانية دون إراقة دماء ودون حرب([1]) فقد نعمت دول بلاد الشام ومدنها في ظل الحكم العثماني بازدهار وتطور ملحوظين على الصُعد كافة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إذ قامت الدولة العثمانية منذ نشأتها على أساس تطبيق شرع الله تعالى، المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فحكمت مدة أربعة قرون ونيف.

وقد ولّى السلطان العثماني سليم الأول(1512- 1520م) (جان بردي الغزالي)([2]) أمر الديار الشامية بما في ذلك الكرك وجبل نابلس والقدس وغزة، وفي أثناء ولاية الغزالي أعطي أمراً بإلقاء القبض على (قراجا بن طرباي) زعيم جبل نابلس، وعلى مجموعة من الشيوخ وأمر بإعدامهم في سنة925هـ فأدى هذا إلى انتشار الفوضى، وزعزعة الأمن ولم تدم ولاية الغزالي فترة طويلة بسبب طمعه بولاية الشام فدفعه طمعه الى شق عصى الطاعة على السلطان، وينصب نفسه ملكاً على الشام كما فعل مع ملكه الأول طومان باي فأخذ يناوئ والي مصر (خاير بك)، واتفق مع طرباي بن قراجا شيخ نابلس الذي أراد الثأر لأبيه ولأهل مدينته، مما مكن العثمانيين بعدئذ من إنهاء أمر الغزالي بقتله. وتوالى على حكم مدينة نابلس وغيرها من مدن ولاية الشام عدد من الأمراء منهم: الأمير منصور المعروف بابن الفريخ، ومن بعده الأمير فرّوخ بن عبد الله الشركسي، ومن ثم ابنه محمد. واستمر ابن فروخ كسابقيه الذين عرفوا بشجاعتهم ومهارتهم في ادراة شؤون البلاد إلى أن توفي سنة1048هـ/ 1638م في مسقط رأسه ،ومركز حكومته مدينة نابلس ودفن

([1]) الموسوعة الفلسطينية، م4، ط1، هيئة الموسوعة الفلسطينية احمد المرعشلي رئيس مجلس الإدارة،رئيس التحرير عبد الهادي هاشم، المستشار أنيس صايغ، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، 1984م، ص417؛ سيشار إليه فيما بعد الموسوعة الفلسطينية.

([2]) جان بردي الغزالي: هو من مماليك الأشرف قايتباي اشتراه وأعتقه ثم عين مأموراً لقرية في مصر تعرف باسم(منية غزال) فنسب إليها فعرف بجان بردي الغزالي ثم استمر في سلم التطور فأصبح قائداً عاماً للجيش الذي أرسله طومان باي آخر ملوك المماليك الشراكسة، وذلك لقتال السلطان العثماني سليم الأول فانهزم في معركة غزة وهرب، ثم بعد ذلك خان ملكه، والتحق بالسلطان سليم الأول فانقلب على ملكه وأصبح عوناً للسلطان سليم الأول في إقصاء طومان باي، وفتح مصر فكافأه السلطان العثماني وعينه على ولاية الشام؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص144- 145

فيها، وله ولدان اشتهرا بعده وهما علي وغسان، وكلاهما ولي الإمارة فالأول تولاها سنةً واحدةً والثاني تولاها غير مرة، وتوفي وهو متوجه إلى آسيا الصغرى في قونية سنة1081هـ([1]).

وبعد هذه الظروف دخلت بلاد الشام، ومن ضمنها نابلس تحت الحكم المصري، الذي استمر من سنة1247- 1256هـ/ 1831- 1840م، وقد كانت بلاد الشام تعرف باسم البلاد السورية أوعربستان، وهذه الفترة التي حكم فيها محمد علي باشا وولده إبراهيم باشا لمصر وبلاد الشام؛ هي الفترة التي تدور فيها رحى هذه الأطروحة لما تأثرت به مدينة نابلس جراء هذا الحكم الذي استمر قرابة العقد، وما أضفى على مدينة نابلس من ظروفٍ اقتصادية وسياسية واجتماعية خاصة شكلتها يد حاكم مصر آنذاك محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا حيث يجد الباحث لزاماً ذكر نشأة محمد علي باشا الذي حكم مصر وبلاد الشام.

ولد محمد علي سنة1769م في قرية(Kavala) قولة، وهي قرية صغيرة تقع شرقي مدينة سلانيك في مجتمع متواضع، حيث كان والده إبراهيم آغا عاملا بسيطا مهمته تأمين حماية المسافرين عبر الطرق، فانخرط محمد علي في سلك الجندية، ورقي إلى رتبة بولك باشي([2]) مكافأة على شجاعته. أما عن حياته الأسرية فقد تزوج من امرأة مطلقة غنية، وكان له من الأولاد: إبراهيم المولود سنة1789م، وطوسون المولود سنة1792م، وإسماعيل المولود سنة1796م، وغيرهم من الأبناء، وتبرز الإشارة إلى هؤلاء الأولاد لأنهم لعبوا دوراً مميزاً وهاماً في العمليات العسكرية، وفي بسط سلطان والدهم، فقد كان محمد علي يمتلك إمكانيات كبيرة أثناء ولايته على مصر، فقد كان شخصا ناجحاً في كل مهمة تسلمها إذ كان تاجراً رابحاً وقائداً منتصراً، وسجل بعض الانتصارات العسكرية ضد الفرنسيين الذين انجلوا عن مصر، وكان محمد علي يتقرب من العلماء فنتيجة للثورة التي قامت في مصر ضد

([1]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص145- 147

([2]) بولك باشي: كلمة تركية مؤلفة من مقطعين هما البولك وتعني: الفوج وجمعها بولكات. أما باشي فتعني: القائد أو الرئيس فتصبح بولك باشي قائد الفوج؛ نهدي صبحي الحمصي، محمد علي والدولة العثمانية 1811- 1827م، دار الرشاد الإسلامية، بيروت، 1995م، ص28؛ سيشار إليه فيما بعد نهدي الحمصي، محمد علي والدولة العثمانية.

المماليك بسبب عدم صرف رواتب الجند أعلن الشيوخ والعلماء بغضهم للمماليك، وأصبحوا ينظرون الى المماليك على أنهم قطاع طرق، واستطاع محمد علي في خضم هذه الأحداث أن يكوّن كارزمة خاصة به من الحاشية والاعوان داخل أوساط الشعب المصري الذين تجمعوا حوله وساندوه، ودارت الاشتباكات بين قوات محمد علي والمماليك، وأسفرت عن انهزام المماليك في29 شباط1805م، وثار الجند ثانية لعدم دفع رواتبهم مما وضع الوالي خورشيد باشا في موقف لا يحسد عليه فالعلماء والشعب ضده مما دفع السلطنة العثمانية إلى إصدار فرمان في28 حزيران1805م بتعيين محمد علي باشا واليا على مصر اعتباراً من9 تموز1805م([1]).

وهكذا فقد تمكن محمد علي باشا الذي وَطِئَت قدماه مصر سنة1801م أن يصبح واليا على الديار المصرية سنة1805م وأن ينشئ دولةً راسخةً إدارياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً أقلقت مضاجع الأوروبيين؛ فقد جاءت تولية محمد علي باشا على ملك مصر بإرادة طبقات المجتمع من عامة الشعب والشيوخ والعلماء إثر اجتماع الزعماء والعلماء وجمهور العامة في الديار المصرية بعد أن ضاق صدر المصريين جراء إهمال ولاتهم لامور المصريين وجشعهم وتسلط العساكر، وطمعهم وفساد القضاة وانحطاطهم، فكان الاجتماع في بيت القاضي إذ نادوا جميعهم:(يا رب يا متجلّي اهلك العثمانلي، وفي اليوم التالي قاموا إلى دار محمد علي، وقالوا له: إننا لا نريد هذا الباشا واليا علينا فسأل: من تريدون؟ فأجابوا بصوت واحد: لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير)([2]) فقد كانت هذه شهادة لها من الأهمية ما يسلط الضوء على أنَّ تولية محمد علي كانت نابعة من إرادة الشعب الحرة.

سار محمد علي بخطى ثابتة في بناء البلاد فكان حريصاً على النجاح، ولا شيء غيره؛ إذ رأى أن أول شروط يجب تحقيقها هي إيجاد وحدة وطنية متجانسة، والمساواة بين جميع الطوائف المصرية أمام القانون، فوزَّع عليهم الضرائب

([1]) نهدي الحمصي، محمد علي والدولة العثمانية، ص28- 34

([2]) أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز 1804- 1841م، القسم 1، ط2، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، 1966م، ص45؛ سيشار إليه فيما بعد أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز.

بالسواء، وجعل الجيش والوظائف العامة مفتوحة أمام الجميع دون احتكارها على فئة دون أخرى، وترك المذاهب الدينية بحرية تامة، ثم شرع في تكوين جيش جديد جنوده من أبناء الدولة المصريين ليكونوا سياج النظام وباعث الثقة في الداخل ورمز القوة والتضحية الوطنية في الخارج، ولمّا خلا الجو وأصبح نقياً أمام محمد علي باشا، وأمن شر المماليك، أخذ ينظر إلى البعد الاقتصادي بعد أن حقق البعدين السياسي والديني، إضافة إلى البعد الاجتماعي في المساواة، فأخذ يوزع الأراضي على الفلاحين وأدخل طرق الزراعة الحديثة، والتجارة كان لا بد لها من أسواق فساد البحر الأحمر ففتح السودان، ونظم حكومته وأصبح ينظر إلى سواحل بلاد الشام([1]).

بدأ اهتمام محمد علي باشا ورغبته بحكم بلاد الشام بعد نجاح حملته ضد الوهابيين في الحجاز سنة1813م، حيث تقدم بصورة عملية بعدة طلبات إلى الدولة العثمانية لضم بلاد الشام إلى حكمه في مصر، لكنه لاحظ عدم تجاوب من جهة السلطنة بهذا الشأن، وقرر ترك هذه الفكرة، لكن الفكرة تجددت والرغبة نضجت لدى محمد علي باشا في ضم بلاد الشام إلى حكمه بعد أن أرسل جيوشه لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد الثوار اليونان، فتقدم مندوبو محمد علي وممثلوه في الأستانة بطلبات رسمية بهذا الشأن بعد معركة نفارينو البحرية في تشرين أول سنة1827م التي دمر فيها الاسطولان المصري والعثماني حينئذ قرر محمد علي الحصول على بلاد الشام بالقوة، وذلك بتجهيز حملة عسكرية بسبب يأسه من حكم بلاد الشام بالطرق الشرعية([2]).

رأى محمد علي باشا أن بلاد الشام ومصر شقيقتان جمعتها غالباً دائرة حكم واحد، هذا فضلاً عما بينهما من روابط المصلحة العامة، والجنس واللغة فلم يكن مستغرباً طموح محمد علي في الاستيلاء عليها سيما وهو الشخصية التي لا يفوتها

([1]) محمد رفعت، ذكرى محمد علي الأكبر المتوفى في 13 رمضان سنة1265هـ ، مجلة المقتطف، ج3، م59، مكتبة شكري شعشاعة، 28 ذي الحجة 1339هـ/ 1 أيلول 1921م، ص226-228؛ سيشار إليه فيما بعد محمد رفعت، ذكرى محمد علي الأكبر

([2]) عادل مناع، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700- 1918م، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1999م، ص131؛ سيشار إليه فيما بعد عادل مناع، تاريخ فلسطين.

إدراك أهمية موقعها الجغرافي، وما لها من الخصال الحربية والاقتصادية، فمصر وبلاد الشام قطران يتمم الواحد منهما الآخر، والجمع بينهما فيه المصلحة للجميع([1])، والناظر بمرآة التاريخ يرى أن الدول الكبرى التي نبعت من قبل في مصر لم تجد بداً من أن تكمل بسط سلطانها نحو بلاد الشام فقد وعد السلطان العثماني محمد علي باشا بأنه سيمنحه تلك البلاد جزاءً لمساعدته له في الحرب اليونانية لكنه أخلف الميعاد([2]). عندئذ نشب الخلاف بين محمد علي باشا والسلطان العثماني محمود الثاني(1223-1266هـ/ 1808- 1839م).

وقبل الخوض في الحملة المصرية على بلاد الشام لا بد من توضيح ماهية النزاع وأسبابه حتى تكون الصورة واضحة وجلية لما أثرت عليه تلك الفترة من تخبط في العلاقات بين محمد علي باشا والدولة العثمانية.

إن النزاع بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني لم يكن نزاعا شخصيا، إذ إن محمد علي كان يجتهد لبسط سيطرته على بلاد الشام وضمها إلى مصر منذ فترة، ويذكر أسد رستم أن هناك جماعة أخرى ترى أن محمد علي كان يسعى ليحل محل السلطان محمود الثاني في مقام السلطنة، وهؤلاء لا يعبؤ بأقوالهم كثيراً كما علل أسد رستم لأنها كلها، أو معظمها تقريبا، ترجع إلى جريدة المونيتور العثمانية سنة1831- 1833م، أو لأنها ترتكز على تصريحات لوزراء وسفراء أتراك، إضافة إلى أن محمد علي باشا نفسه أنكر مراراً وعلانية ميله إلى إسقاط السلطان عن عرش الأستانة، وقد حدث في دمشق سنة1832م أن أحد أئمة المدينة ضرب بعد أن فتحها المصريون لأنه رفض أن يدعو للسلطان محمود الثاني، وقد قال إبراهيم باشا أثناء حملته في آسيا الصغرى1832- 1833م:(إن أبي لا يزال

([1]) سليمان أبو عزالدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1929م، ص32؛ سيشار إليه فيما بعد سليمان أبو عزالدين، إبراهيم باشا في سوريا.
([2]) كارل بروكلمان، الإسلام في القرن التاسع عشر، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت)، ص15؛ سيشار إليه فيما بعد كارل بروكلمان، الإسلام في القرن التاسع عشر.

العبد الخاضع للسلطان والحامي عن الدين الحنيف)، وهناك شهادات متعددة تدل على ذلك([1]).

إن النزاع بين محمد علي باشا والسلطان العثماني محمود الثاني كان قائماً على حقيقتين: الأولى أن النزاع لم يكن قومياً أو عرقياً. أما الحقيقة الثانية هو أن طبيعة النزاع لم يثبت في جميع مراحله عزم محمد علي باشا، ولو حتى بالتفكير، على أن يحل محل السلطان على عرش الأستانة([2]) فما الذي كان يطمع به محمد علي باشا في حروبه مع السلطان؟ وما هي غايته؟ وهل كان محمد علي مهووسا في نيل درجة الرجل الأول في الدولة؟

إن الباحث في هذه الجزئية يجد تضارباً بين الأدلة الكثيرة المتعددة المتناقضة؛ فالبعض يميل الى القول إن محمد علي باشا كان يفكر في عرش السلطنة وهو رأي ضعيف، لم يجد ما يثبته من خلال خطابات محمد علي باشا في حروبه سواء في الدول التي فتحها أو في خطاباته مع السلطان، لكن خلاصة ذلك، وانطلاقا من الموضوعية، فقد ثبت عند أغلب الباحثين أن محمد علي باشا كان طموحا يجتهد للحصول على الشهرة، ويجاهد أيضا للحصول على توسيع رقعة ملكه نتيجة لنجاحاته في عدة مناسبات، إضافة إلى بروز غريزة الدفاع عن النفس لدى محمد علي باشا، فقد شعر أو اعتقد أن السلطان محمود الثاني لا ينوي إبقاءه في منصب الولاية، وهو شعور دائم ينتاب التابع ويرغمه على الحذر أو محاربة المتبوع له إذا لم يُرد التقرب والتوسل إليه في سبيل بقائه.

وقد أشار سليمان أبو عز الدين إلى عدة أسباب كان يدور حولها النزاع بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا، وهي([3]):

([1]) أسد رستم، محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني والنزاع بينهما وبعض وجوهه الجغرافية، مجلة المقتطف، ج5، م66، مكتبة شكري شعشاعة، 8 شوال 1343هـ/ 11 أيار 1925م، ص541-542؛ سيشار إليه فيما بعد أسد رستم، محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني.

([2]) المرجع نفسه، ص543

([3]) سليمان أبو عزالدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص54- 55

1- نزعة السلطان الاستقلالية، والعداء القديم بينه وبين خسروا باشا، إضافة إلى الحسد الذي كان يجيش في صدر السلطان بسبب نجاح محمد علي باشا في جميع مشاريعه.

2- انسحاب جنود محمد علي من المورة بناء على اتفاق عقد بينه وبين دول الحلفاء مباشرة دون إذن من الباب العالي.

3- محاولة محمد علي إقناع الحكومة العثمانية بعدم محاربة الدولة الروسية ثم إحجامه عن الاشتراك معها في تلك الحرب.

4- تحريض ألبانيا وأهالي الروملي بالانقضاض على الدولة العثمانية، ووعده مصطفى باشا واليل أشقودره بإمداده بالمال والرجال بناءً على رسائل وقعت في قبضة الحكومة العثمانية، ومن إقرار مصطفى باشا نفسه.

إنَّ جميع هذه الأسباب تمثل مراحل الحقد التي كانت تغلي في صدور المتخاصمين، وكأن أبا عزالدين يبين أن كلاً من محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني كان ينتظر فجوة عند الآخر حتى يفتح سيله عبرها.

أمَّا أسد رستم فإنه يرى أن الاعتقاد كان واقعيا بأن السلطان محمود الثاني لا ينوي إبقاء محمد علي في منصبه ففي سنة1806م أراد السلطان أن ينقل محمد علي باشا إلى سلانيك، وأيضا في سنة1813- 1814م عندما كان محمد علي يحارب الوهابيين عيّن السلطان لطيف باشا ليحل محله والياً على مصر، وفي سنة1829م حاول السلطان أن يفرق بين محمد علي باشا وابنه إبراهيم الذي عينه والياً على مكة، وهو أعظم منصب في السلطنة، وفي سنة1830م أشار السلطان إلى محمد علي بترك الإسكندرية ودمياط ورشيد ليتسلم حكمها قبودان باشا، الذي كان خصماً لمحمد علي الشخصي([1]). يتبين مما تقدم أن محمد علي باشا في نزاعه مع السلطان محمود الثاني كان يحارب للمحافظة على ثروته، ومنصبه، ومقامه، ومن المحتمل أن محمد علي باشا كان يحارب أيضاً للمحافظة على حياته.

وهناك عدة عوامل حقيقية دفعت محمد علي لضم بلاد الشام لطموحه في توسيع دائرة حكمه، وتوطيد أركانه باستخدام ما تحويه بلاد الشام من ثروات

([1]) أسد رستم، محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني، ج5، م66، ص543- 545

وخيرات ورجال، ورغبته في إبعاد عاصمة بلاده عــن حــدود الدولــة العثمانيــة، ولإقامة حاجز حصين بينهما؛ فبلاد الشام الكثيرة الجبال والوديان يسهل على جــيش منظم أن يجعلها سداً منيعاً في وجه الغزاة من الشمال، إضافة إلى طبيعــة ســكانها المعروفين بوطأة البأس، بالإضافة إلى ما يتوفر في بلاد الشام من أخشاب ومعــادن وصناعات وثروات طبيعية واقتصادية متعددة مما تفتقر له الديار المصرية([1]).

ومن العوامل الأخرى التي دفعت محمد علي باشا الى الاتجاه نحــو بــلاد الشام البُعدُ الجغرافي؛ إذ إنها طريقٌ عامٌ بين آسيا وإفريقيا وقنطرة عظيمة وجــسرٌ يصل أملاك محمد علي بالسلطان محمود الثاني، ولهذا كان محمد علي شديد التفكير لضم بلاد الشام فقد شيد المباني بين سنة1831– 1840م، وتجديده لحصون عكــا، وخطه طريقاً حربياً فيما بعد بين شمال بلاد الشام ومصر([2]) فمصر وبــلاد الــشام شكلتا منذ عصور التاريخ وحدة اقتصادية لا بل وحدة جغرافية طبيعية واحدة.

بعد أن اكتملت النيّةُ لدى محمد علي باشا في ضم بلاد الشام لحكمــه فــي مصر، وأعد الظروف، وتسببت الأسباب، كان الإقدام على ضم بــلاد الــشام إلــى مصر، ومضى الاستعداد على قدم وساق لتحقيق ما خطط له مــسبقا([3]). فقــد كــان توقيت الحملة موفقا بالنسبة لمحمد علي باشا؛ فأوروبا مشغولة بــالثورات الداخليــة التي قامت في بعض عواصمها سنة1830م، والسلطان العثماني لم يكن قد انتهى من إقامة جيش(النظام الجديد) على أنقاض فرق الانكشارية([4])، فقــد قــضى الــسلطان محمود الثاني على الانكشارية في سنة1826م، واستعاض عنها بجيش نظامي جديد لا يربو على45 ألفاً، وعلى الرغم من شدة اهتمامه برواتبهم ومأكلهم وملبسهم فإنــه لم يوفق في تدريبهم فأوعزهم النظام والانضباط واسترسلوا في النهب والسلب حيث

([1]) سليمان أبو عزالدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص51- 55؛ انظر عدنان فريد جراد، الحكم المصري في سورية 1831- 1840م، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1979م، ص23- 35؛ سيشار إليه فيما بعد عدنان جراد، الحكم المصري في سورية.
([2]) أسد رستم، محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني العوامل الجغرافية والاقتصادية في النزاع بينهما، مجلة المقتطف، ج3، م67، مكتبة شكري شعشاعة، 11 محرم 1344هـ/ 1 أب 1925م، ص283
([3]) لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام 1831- 1841م، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990م، ص40؛ سيشار إليه فيما بعد لطيفة سالم، الحكم المصري في الشام.
([4]) عادل مناع، تاريخ فلسطين، ص 132

كان قائدهم حسين باشا سرعسكر الجيش العثماني الذي كان جاسوسا فأصبح جـــلاداً وضابطاً فقائداً، وألبسه السلطان كسوة القيادة العليا، وهو المعطف القصير المزركش وأهداه سيفا مرصعا بالألماس وجوادين، وقلده رتبة المشيرية ولقبه بالمشير الأكـــرم وولاه مصر وكريت والحبشة([1]).

ومن الظروف التي عاصرت الحملة ثورة اليونان والحرب مع روسيا اللتان شكلتا عاملاً آخر في ضعف الدولة العثمانية، وانشغالها في البلاد العربية. أما فـــي بلاد الشام فلم يتوقع محمد علي باشا أن يواجه مقاومة كبيرة خاصة مـــن الأهـــالي والحكام المحليين؛ فالأمير بشير الشهابي أمير جبل لبنان، وسواه من العائلات فـــي لوائي نابلس والقدس كانوا على علاقات وثيقة بحاكم مصر محمد علـــي أمـــا ولاة دمشق فكانوا يعانون من عدم الاستقرار نظرا لتبدلهم الـــسريع وانـــشغالهم بقافلـــة الحجاج السنوية، وقبل قيام الحملة المصرية في شهر أيلول1831م نشبت ثورة فـــي دمشق ضد واليها محمد سليم باشا الجديد؛ فقد كان معروفا أن عبد الله باشـــا والـــي صيدا هو العقبة الأساسية أمام تقدم الجيوش المصرية، إذ كان تركيز محمـــد علـــي باشا وولده إبراهيم مركزاً ضد حاكم عكا عبد الله باشا حيث حاولوا كـــسب بعـــض رجال الدولة والزعماء المحليين لصفهما([2]).

استغل محمد علي هرب مجموعة كبيرة من الفلاحين سنة1830م من إقلـــيم الشرقية في مصر إلى نواحي فلسطين الذين لجئوا إلى عبد الله باشا، فافتعل محمـــد علي باشا الشرارة نتيجة لذلك، وطلب من عبد الله باشـــا أن يعيـــد الفلاحـــين إلـــى الأراضي المصرية([3]) فكان ردُّ عبد الله باشا الذي يعلم بهذه الحجـــة أن المـــصريين الذين لجئوا إليه في عكا هم من رعايا الدولة العثمانيـــة، وإنـــه سيـــسعى لإرجـــاع الفلاحين إلى مصر، ولكن لا يرى انه يحق لوالٍ أن يتدخل في شؤون والي آخـــر، فحنق محمد علي لهذا الجواب، وكتب إليه متوعداً، وزاد الجفاء بين عبـــد الله باشـــا ومحمد علي عندما اتُهِمَ عبد الله باشا من قِبل محمد علي في أنَّه يشجع تحويل تجارة الحاصلات المصرية إلى طريق صحراء سيناء بدلاً من تـــصديرها عـــن طريـــق

([1]) أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز، القسم1، ص61
([2]) عادل مناع، تاريخ فلسطين، ص32
([3]) المرجع نفسه، ص132

الموانئ المصرية لما في ذلك من ضرر بمصلحة محمد علي باشا، وعلاوة على ذلك إن محمد عندما قام بتنشيط زراعة التوت وتربية دود الحرير في مصر، كان يأخذ بزره من جبل لبنان ففي سنة1831م، منع عبد الله باشا إخراج البزر من لبنان لاستحكام الجفاء بينه وبين محمد علي باشا، بالإضافة إلى أن محمد علي عند استصدار العفو لعبد الله باشا من الدولة، اشترط الباب العالي على عبد الله باشا دفع60 ألف كيس إلى الخزينة السلطانية، فلم يكن يملك هذا المبلغ فاستلف بعضه من محمد علي باشا لكنه بعدئذ أبى رد هذه السلفة([1]) عند ذلك أصبح الخلاف عميقاً بين الاثنين، ولم يكن بُدٌ في ظل هذه الظروف إلا بقيام الحملة المصرية على بلاد الشام.

بدأت الحملة التي وجهها محمد علي باشا إلى بلاد الشام حيث كان الزحف بقيادة ولده الأكبر إبراهيم باشا في2 تشرين ثاني1831م، وقد سار بعضها براً والبعض الآخر تحرك بحراً([2])، وكان عدد الجند والعساكر نحو30 ألف رجل ومعها40 مدفعاً من مدافع الميدان، وعددٌ أكبر من ذلك من مدافع الحصار واشتركت معها قوة البحرية المؤلفة من23 سفينة بحرية و17 سفينة نقل بقيادة أمير البحر عثمان نور الدين بك، فقد كان القواد لهذه الحملة محنكين، وذوي خبرة ثبتت كفاءتهم في حروب سالفة مع جنودهم([3]) ففي بداية هذه الفترة كان الصراع بين جيوش محمد علي وعساكر السلطان العثماني قائما، فبعد احتلال المدن الساحلية مثل غزة ويافا وحيفا في أواخر سنة1831م([4]) توجه إبراهيم باشا إلى عكا فحاصرها وطَوق عبد الله باشا في قلعته لكن حصار القلعة طال أمده إلى السنة التالية على الرغم من المساعدات التي قدمها الأسطول إلى القوات المصرية المحاصِرة، وطالب محمد علي بأن تقطعه الدولة ولايتي عكا ودمشق إلى أن تم احتلالها بعد حصار استمر6 أشهر في أيار1832م، ثم دخلت العساكر دمشق في الشهر التالي دون مقاومة([5]).

([1]) عدنان جراد الحكم المصري في سورية، ص21- 22؛ انظر سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص55- 58

([2]) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ص172

([3]) سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص73

([4]) عادل مناع، تاريخ فلسطين، ص137

([5]) كارل بروكلمان، الإسلام في القرن التاسع عشر، ص15- 16؛ انظر تاريخ الأمير حيدر احمد الشهابي، ج4، علق على حواشيه مارون رعد، إشراف نظير عبود، دار الجيل، بيروت، 1993م، ص1289- 1290؛ سيشار إليه فيما بعد تاريخ الأمير حيدر احمد الشهابي.

وعقب الاستيلاء على حيفا اتخذها إبراهيم باشا قاعدة للأعمال البحرية، بعد أن سلمت نابلس وطبرية، وبعد أن سقطت عكا أمر إبراهيم باشا بالمحافظة على الأمن والعمل على راحة الأهالي([1]) فاستقبلت في بلاد الشام قوات إبراهيم استقبال المحرر المنقذ من قِبل الأهالي الذين انحنت أكتافهم من ثقل ما كلفتهم به الإدارة العثمانية([2])، وكان موقف شيوخ نابلس وجنين ومنهم الشيخ حسين عبد الهادي، والشيخ قاسم الأحمد، والشيخ عبد الله الجرار تقديم الطاعة لإبراهيم باشا فما كان منه إلا أن قبل طاعة شيوخ نابلس وجنين، واستمع إلى شكواهم من سعد بك طوقان، وقَبِلَ التماسهم فعين الشيخ حسين عبد الهادي متسلما على جنين وبلادها والشيخ محمد القاسم متسلما على نابلس، وأحال إقليم المشاريق إلى عهدة الشيخ عبد الله الجرار، وإقليم بني صعب إلى الشيخ يوسف الجيوسي والشيخ عبد الوهاب الجيوسي([3]) ثم قام إبراهيم باشا بإصدار مرسوم بتاريخ15 جمادى الآخرة1247هـ/ 1831م يتضمن الإبقاء على الشيخ محمد القاسم متسلما لنابلس كما كان إلا انه في سنة1249هـ/ 1833م ما لبث أن عزله وعين بدلا منه في هذا المنصب الشيخ سليمان حسين عبد الهادي([4]).

واستمرت قوات محمد علي في الزحف إلى أن أكملت سيطرتها على بلاد الشام، فانتصر إبراهيم باشا في حمص، واستولى عليها، وعلى حماة وحلب([5])، واتجه نحو مضيق بيلان الجبلي الواقع بين إنطاكية والاسكندرونة، وهو مفتاح مؤدٍ إلى قلب الدولة العثمانية، فحشدت قوات الدولة العثمانية بقيادة السردار الأكرم حسين باشا في 29تموز1832م، وهاجم إبراهيم باشا الأتراك ودحرهم؛ فهرب حسين باشا إلى أضنة تاركا وراءه سوريا في أيدي المصريين فدخلت القوات المصرية الأناضول، واستولت على أضنة، فما كان من السلطان إلا أن عزل حسين باشا،

([1]) لطيفة سالم، الحكم المصري في الشام، ص40- 41
([2]) كارل بروكلمان، الإسلام في القرن التاسع عشر، ص17
([3]) محكمة نابلس الشرعية، سجل 9، 15 جمادى الأولى 1247هـ/ 23 آب 1831م، ص396؛ انظر أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز، القسم1، ص61- 62
([4]) عبد الله كلبونة، تاريخ مدينة نابلس، ص87- 88
([5]) الأب فردينان توتل اليسوعي، وثائق تاريخية عن حلب، مجلة المشرق، ج41، العدد 3، تموز- أيلول 1948م، ص411- 412

وعين رشيد محمد باشا قائداً عاماً، فوقعت قرب قونية في أسيا الصغرى في21كانون أول1832م معركة أخرى بين الأتراك والمصريين، استطاع إبراهيم باشا أن يحاصرهم وألحق بهم الهزيمة، عند ذلك التجأ السلطان إلى الدول الكبرى، إلا أن فرنسا ساعدت مصر، وقدمت لها المساعدات، فوقفت روسيا إلى جانب الأتراك، وفي21كانون أول1832م عرض الممثل الروسي على الباب العالي رسميا مساعدة روسيا المسلحة، فدخل الأسطول الروسي مياه البسفور في20شباط1833م بناءً على طلب السلطان محمود الثاني فقد رابط مقر أركان الحرب في الفيلق العسكري الروسي على الشاطئ في(هنكار اسكله سي) مما افزع بريطانيا وفرنسا، فتدخلا لمصلحة محمد علي باشا، وقامتا بمظاهرة بحرية عسكرية مشتركة، عند سواحل مصر، وبوساطة الدولتين وُقِّعت (اتفاقية كوتاهية) في4 أيار1833م بين الدولة العثمانية ومصر([1]).

وقد ساعدت عدة ظروف ثبَّتت أقدام إبراهيم باشا في بلاد الشام كدعوته لقيام دولة عربية موحدة حيث كانت دعوته صادقة بالإضافة إلى ثقافته الشرقية التي كان لها الأثر الكبير؛ لكونه يتقن اللغات التركية والعربية والفارسية فقد كان عالماً بتاريخ الشرق، علاوة على انه تعلم الفرنسية فيما بعد([2])، وقد أظهر إبراهيم باشا براعة في فنون الحرب وإقداماً في ميادينها، ودهاء وحنكة في السياسة، ومقدرة نادرة في التنظيم والإدارة، وقد كان صاحب رأي قويم أثبتت التجارب والحوادث صحته، لكنه كان إذا اختلف رأيه عن رأي أبيه يغلّب رأي الوالد حباً به وبراً وإذعاناً له واحتراماً([3]).

([1]) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، أعدت الطبعة الروسية للنشر وحررها ايفانون، ترجمة عفيفة البستاني، مراجعة يوري روشين، دار التقدم، 1971م، ص126- 131؛ سيشار إليه فيما بعد لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث؛ انظر لطيفة سالم، الحكم المصري في الشام، ص46- 47

([2]) مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق احمد غسان سبانو، سلسلة دراسات وثائق تاريخية دمشق والشام، دمشق، منتصف ق19، ص18؛ سيشار إليه فيما بعد مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية؛ انظر محمد رفعت، محمد علي الكبير والخلافة، مجلة المقتطف، ج3، م63، مكتبة شكري شعشاعة، 22 ربيع الأول1342هـ/ 1 تشرين أول 1923م، ص259- 263

([3]) القاضي بيير كرابيتس، إبراهيم باشا، مجلة المقتطف، ج3، م88، مكتبة شكري شعشاعة، 7ذي الحجة1354هـ/ إذار1936م، ص394- 395

وانتهج إبراهيم باشا سلوكا معتدلاً في تعامله مع أهالي الشام، وكان حريصا على اكتساب ودهم، وعدم إلحاق الأذى بهم، ونظراً لانشغاله بالأمور العسكرية فانه لم يقم خلال السنة الأولى من حكمه بأي تغييرات إدارية تذكر، فلم يتعرض لنظام العائلات، إذ أبقى غالبية أهل النفوذ والوظائف المحليين في مواقعهم، وذلك للاستعانة بهم في حفظ الأمن والنظام في البلاد حتى يتمكن من التفرغ لاستكمال حروبه ضد العثمانيين، في حين كان يسعى إلى تحييد القدرة العسكرية شيئاً فشيئاً للزعماء المحليين، ودمجهم في نظام إداري مركزي([1]).

أنهى ابراهيم باشا قبيل عقد اتفاقية كوتاهية سنة1833م، فتوحات بلاد الشام، وبمقتضى هذه الاتفاقية أصبحت القوات المصرية على مشارف(بوغاز كولك) بجبال طوروس لكن هذه الاتفاقية لم تكن ملزمة للسلطان العثماني محمود الثاني بل كانت مؤقتة. فقد قام إبراهيم باشا قبيل هذه الاتفاقية واستقرار الأمور في بلاد الشام، بتقسيم البلاد إلى المديريات التالية([2]):

1- مديرية دمشق: وكان يديرها محمد شريف حكمدار إيالات بر الشام، وهي أهم مديريات بلاد الشام، وارتبطت بها عدة أقضية هي: بعلبك والبقاع ودوما والنبك ووادي العجم وحاصبيا وراشيا، بالإضافة إلى مدينة دمشق نفسها، وكان لواء حيران التابع لمديرية دمشق يضم أقضية: عجلون والقنيطرة وبصرى الحرير ودرعا وجبل حيران.

2- مديرية حلب: وكان يديرها إسماعيل عاصم.

3- مديرية طرابلس: ويديرها مصطفى آغا بربر.

وعند قدوم إبراهيم باشا إلى بلاد الشام استقبل استقبالا مهيبا، ونظمت قصيدة في مدحه عندما فتح بلاد الشام سنة1831م، وهي قصيدة عامرة الأبيات، متينة التركيب تبلغ68 بيتاً من الشعر، وكما يشير الأب لويس شيخو اليسوعي فإنه لم يتضح اسم ناظم هذه القصيدة، ما لم يكن المسمى أمين محمد العطار الذي طبع

([1]) أمين عبد الله محمود، الإدارة المصرية في بلاد الشام وبداية ظهور المسألة الفلسطينية 1831-1840م، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م8، العدد32، خريف1988م، ص109؛ سيشار إليه فيما بعد أمين محمود، الإدارة المصرية في بلاد الشام.

([2]) المرجع نفسه، ص110

خاتمه في صدر الكتاب، إذ وجدت هذه القصيدة في مخطوط صغير طولــه20ســم وعرضه13سم، اختارت الدراسة من هذه القصيدة الأبيات التالية([1]):

الله أكــبرُ جــاءَ النَّــصرُ والظَّــفرُ   والأمنُ واليُمنُ لمَّا ســاعدَ القدرُ
واخضرَّ روضُ الأماني فهي حاليةٌ   كأنَّما جَــرَّ فيــها ذَيلَه الخَــضِرُ
العَــدلُ يُنــشَرُ في ديــوانهِ أبــداً   والشَّرعُ يأمرُ والصَّمصامُ ينتَظِرُ
وحــاربَته بنــو حَــربٍ فأوردهم   من المنيَّةِ وِرداً ما له من صدرُ
أحيَ القــرائحَ معــروفاً ومعــرِفَةً   لا يُنبِتُ الزرعُ ما لم يهطُلُ المَطَرُ

وكان كل من السلطان العثماني محمود الثاني، ومحمد علي باشــا يتحــيَّن الفرصة للإطاحة بالآخر إن أمكن، وبعد عقد من الزمان تقريبا، خضعت خلاله بلاد الشام للحكم المصري، تمكن العثمانيون من استعادة فلسطين، وأجبروا إبراهيم باشــا على الانسحاب منها بموجب مؤتمر لندن سنة1840م، وقد أنيط الحكم بعد ذلك فــي مدينة نابلس بالأُسر المحلية من آل طوقان، وآل عبد الهادي الــذين اختلفــوا علــى السلطة فيما بينهم فيما بعد، مما دفع الدولة العثمانية إلى تعيين حاكمٍ عثماني، استمر بحكم البلاد على الرغم من ثورات الأهالي المتعددة حتى سنة1918م، عندما سقطت البلاد بيد الاستعمار البريطاني على اثر الحرب العالمية الأولى 1914- 1918م([2]).

([1]) الأب لويس شيخو اليسوعي، قصيدة في مدح إبراهيم باشا المصري، مجلة المشرق، ج23، العدد4، نيسان 1925م، ص299- 304

([2]) مسلم الحلو، موسوعة المدن الفلسطينية، ص716